الثورية ومنطق التجربة والكشف

لماذا نعيد النظر ؟

بقلم مطاع صفدي

كيف يمكن ان توضع المسألة الثورية مرة أخرى ؟ وما هي الحاجات الاساسية التي تدفع الى مثل هذا الوضع ؟ وهل هناك فائدة حقيقية ، بالنسبة للوعي من جهة وللثورة من جهة ثانية ، في مواجهة المسألة بصورة جذرية شاملة ؟

كل هذه الاسئلة في الواقع لم تكن لتثار لولا أن تطور الاحداث خلقت توترا جديدا يؤذن بزعزعة كثير من ركائز الوثوقية القديمة التي أفادت ضمن ظروف تاريخية معينة ، ويشير في الوقت ذاته الى ضرورة التطهر من مثل هذه الوثوقية ، والبحث عن جماعيات فكرية جديدة تناظر جماعيات الحوادث وتنفذ الى صميم حركيتها ، وتؤلف وإياها مظهرا حيا كليا لواقع التحقق العملي الذي يحيط بنا من كل جانب.

ولكن ما هي الثورة أولا ؟ أيكون هذا السؤال نظريا خالصا ؟ كلا ، فان حاجة اساسية تدفعنا في كل مرحلة تجتازها الثورة ، الى ان نطرح هذا السؤال مجددا . هكذا نحن ، فاننا نجد انفسنا دائما محتاجين الى التوقف . والتوقف خطوة ساكنة في مجرى الاحداث . وهي خطوة ضرورية . واذا اخذت من خلال السياق الكلي ، بدت أنها متحركة كأية خطوة أخرى .

ان التوقف قد يلي انجازا ما . ولا يشترط في هذا الانجاز أن يأتي محققا لكل أهدافه . فقد يكون ناقصا أو جزئيا ، بل قد يكون فاشلا أحيانا . ولعل التوقف يوحي بعدم الكمال السابق فيما أنجز ، ويجيء معبرا عن فترة قلق أو غموض ، تلتبس فيها الاهداف القديمة ، بالوسائل العملية التي أثبتت التجربة عدم توازنها مع تلك الاهداف قليلا او كثيرا.

ولنرجيء الان بحث هذه النقطة ـ التوقف ـ ونتابع توعيتنا لمعنى السؤال السابق : ما هي الثورة .

ان الاجابة النظرية الخالصة تقدم لنا مفهوما شكليا ـ بالمعنى الكانتي ـ . فقد نستطيع ان نتفق ان الثورة هي انقطاع التطور . وانها المفهوم المعاكس لمعنى التقدم الطبيعي . واذا تعمقنا أكثر ، قيل لنا ان الثورة هي المرحلة التي يكون فيها الوعي قد اكتسب شعورا بذاته ، دون أن تستطيع المؤسسات القائمة بوسائلها المعتادة تحقيق مضمون هذا الشعور . ولذلك فان الانقطاع لا بد ان يقع بين الوعي وبين مؤسسات الواقع . فيتحول هذا الوعي الى قوى فاعلة ، ما أن تصطدم بمؤسسات الواقع ، حتى تجسمها أمامها كعقبات . وعندئذ يتدخل العنف بصورته المادية أو المعنوية .

غير ان المشكلة ان هذا الاصطدام بين القوى الثائرة وبين عقباتها الواقعية ، لا يحدث على هذا الشكل البسيط الذي تتصوره عادة النظرية الايديولوجية . وهذا ما يسبب قيام الصراع عادة حتى بين القوى الثائرة نفسها . لان الاصطدام بهذه المؤسسات كثيرا ما يكشف بنيات جزئية وتفاصيل ذات مناعات مفاجئة ، لم تكن قد تنبأت بها النظرية الايديولوجية . وعندئذ لا بد ان تحدث ارتكاسات ضرورية نحو المبادىء الاساسية التي انطلقت منها هذه النظرية .

لكن عملية الارتكاس ذاتها تحمل تغييرات جديدة لمضمون هذه المبادىء . اذ انها ستأتيها محملة بعنف التجربة . هذه التجربة التي مهما كانت منسجمة في انطلاقها مع المبدأ النظري ، فانها في حال عودتها اليه ستكون شبه غريبة عنه ، ان لم تشرع مباشرة في التحوير والحوار ، في القاء ظل الواقع عليه ، وفي مد سلطة المراقبة ، مراقبة المبدأ النظري ، على منجزات الواقع .

ومن هنا كانت الثورة في حقيقتها شيئا لا يتحقق كله ، ولا يوجد كله ، بصورة جزئية او شاملة . كان لا بد اذن من تناولها عبر تغيراتها وليس من خلال ثوابتها . فالنظرة اليها هي نظرة جدلية . والجدل ، ليس في الفكر وحده ، بل في العلاقة الحية بين بنيات واقعية تلقاء بعضها بعضا ، وبين هذه البنيات والمنعكسات الفكرية التي يستنطقها الوعي في حال شموله لجماعية الجدل ، وان لم تكن له تلك الجماعية النهائية

الثورة هي الجدل ، وليس الانقطاع . وان ذلك يبدو متناقضا مع ما كنا أسلفنا من تعريف سابق للثورة . والواقع ان اعتبار الثورة مجرد انقطاع ، يوقعنا في نظرة جزئية مبتسرة . لان الانقطاع الذي تحدثه الثورة في سياق البنى الجماعية للواقع المثار عليه ، انما هو اولا انقطاع نسبي ، محدد هكذا : انقطاع بالنسبة لهذه البنى . والانقطاع لن يدوم لانه هنيهة ، ما أن تحدث حتى يؤدي الى اتصال معاكس . انه اتصال يريد ان يقيم الاسس البديلة عن الاسس المنهارة .

واذا تذكرنا ان الثورة الواقعية لا يمكن ان تحدث ككل ، كما لا يمكن ان تحقق الاغراض التي قامت من اجلها ، كما تصورها الوعي قبل التحقق الثوري ، وان الثورة سوف تتحول الى ثورات ، أو بالاحرى حركات متباينة في أخاديد الواقع ، وان هذه الحزكات ذاتها سوف تأخذ محاور مختلفة ، كما سيكون لها مواقف جزئية متعددة ، تتفق أولا مع الموقف الاساسي المتصور . اذا تذكرنا كل ذلك ووعيناه ، كان لدينا اذن ، بدلا عن هذا التبسيط الاولي المتضمن في تعريف الثورة كانقطاع او كمعاكس للتطور ، كان لدينا مفهوم اخر أكثر تعقيدا وأشمل لحقيقة الشروع الثوري . انه الشروع الذي هو جدل .

ان الجدل هو الذي يثبت هذا الخط : وهو عدم كفاية الثورة بذاتها ولذاتها ، على أن يفهم عدم الكفاية هذا أنه شرط حقيقي أولي لواقعية الثورة . اذ ان الثورة حدث لا يكون كله . وهو حدث تنشق عنه احداث اخرى ، ليس في المدى الزمني ، ولكن في البرهة ذاتها التي تستقطب أول بوادر الثورة كعمل . ولعل من أبرز العناصر الاساسية التي تظل تحتاجها الثورة التشخيص المستمر لما تتوجه اليه الثورة. أي ان الثورة ليست شيئا منفصلا او خارجيا عن نظام العقبات التي تنبثق الثورة من اجل تهديمها . تنبثق في حجر هذه العقبات ، بل تبدو كالضرورة العليا لضرورات هذه العقبات ، وان كانت ضرورة سوف تنسف جذور الضرورات الاخرى .

ان عملية التشخيص لتناقض الثورة لا تتوار الا بفعل التناقضات الداخلية التي تقع فيها الثورة نفسها وهي في سياق الانجاز . ولعل التناقضات الداخلية ليست أقل أهمية او خطرا من التناقض الخارجية. بل ان حيوية الحركة الجدلية للثورة لا تقاس الا بمدى ما تكشف عن تناقضاتها الخاصة ، التي كانت في حال الكمون قبل الشروع ، ثم ما لبثت ان تبلورت بفعل الصراع الخارجي وهو يصبح تدريجيا صراعا داخليا ، يزيد من مسؤولية الانجاز ، ويضع العمل الثوري أشد فأشد تلقاء مصيره الحقيقي.

فالرديف الدائم في جدلية الصراع للثورة هو العلاقات الاخرى

التي تقاوم انبثاق الثورة من طبيعة هذه العلاقات ذاتها . ولكن المقاومة لا تنهار كلها . قد تنهار ولكنها لا تنعدم . وانما تتغير طبيعتها . والمسافة التي تفصل بين كل من الثورة والعلاقات المقاومة ، لا تلبث ان تتناقص، وتتداخل حدود الطرفين المتنازعين . بل قد تتبادل هذه الحدود ظلال بعضها بعضا ، او تتفاعل خصائصها . وفي مثل هذا المستوى يصعب الفصل حقا فيما هو ثوري ، وفيما هو غير ثوري . ولذلك لا بد من الاعتراف بوجود مستوى واقعي جديد ، لم يعد ممكنا فهمه بالمعطيات الثورية السابقة . كما لم يعد التغلب عليه بالوسائل الاولى ، ممكنا ايضا.

وهذا المستوى هو الذي يتطلب طرحا جديدا لمسالة الثورة كلها. هذا الذي يتطلب موقف التوقف الذي ينضمن هو ذاته فعالية نظرية جديدة يمكن تحديدها بانها ـ اعادة نظر ـ .

فلنقل اذن انمن طبيعة الحركة الجدلية ان يكون هناك توقف.وليس شرطا أن يتولد عن التوقف ذاته حركة جديدة . فالتوقف يظل له اعتبار غير سكوني اذا ما نسبناه الى السياق الجدلي ككل . واذا ما نشأ عنه تحرك جزئي اخر ، فهو لانه ليس توقفا مطلقا . الا اننا اذا ما نظرنا الى تاريخ الجدل ذاته، وجدنا انه قد يتحدد بمجموعات جدلية خاصة، كل منها تنحل الى مجموعات جدلية اصغر . ولكننا لا نستطيع ابدا أن نصل في نهاية التحليل الى مجرد اطراف لا تدخل ضمن علائق جدلية مهما كانت بسيطة وأولية . ففي جذر الجدلية لا توجد الا جدلية.

واذا كان هيجل قد اثبت ذلك في حدود الافكار ، فان ماركس حاول ان يثبتها في مستوى العلائق التاريخية الاجتماعية ضمن المؤسسات المادية . وحاول سارتر أخيرا (في كتابهنقد العقل الجدلي خاصة) ان يركب من المستويين السابقين ، مستوى جدلية الافكار ، ومستوىجدلية العلائق المشخصة ، جدلية ثالثة ، تجمع بين الافكار والعلائق المشخصة ضمن فعالية جديدة هي قدرة الحرية الانسانية على توعية الجدل من داخل وجعله انسانيا لا اطلاقيا متعاليا ، كما فعل هيجل ، ولا ماديا لا مشخصا ، كما فعل ماركس (1)

غير ان المرقف العربي لا بد ان ينظر الى المنهج الجدلي من زاوية خاصة أيضا . وهي انه اذا كان التاريخ عامة هو عبارة عن جماعية شاملة لجماعيات جدلية مختلفة ، فان الوحدة التي يتشخص من خلالها التاريخ وينجز جدلياته ، هي الحضارة ، على ان نفهم الحضارة من زاوية انتولوجية . أي اننا لا ننظر الى منجزات الحضارة من ثقافة وسياسة واخلاق على انها غاية في حد ذاتها ، كما يفعل المؤرخ العادي . كما اننا لا ننظر اليها كمجموعةمن الرموز ، نستقرىء بواسطتها شخصية الامة العميقة التي حملت هذه الرموز ورسمتها كاحداث . بل ان الحضارة بالمعنى الانتولوجي الجدلي أيضا ، هي انها منظومة علائق جماعية حددت تقييما نوعيا ربط بين انسانية معينة بأمة ، وبين عالم مرتبط بتاريخشامل.

وعلى ذلك فان الجماعة الجدلية ، بحسب هذه الزاوية ، قد اكتسبت تشخيصا جديدا زاد ارتباطها بخارطةالعالم الواقعيه منجهة، كما زادها اقترابا أكثر من حرية الانسان باعتبارها حرية الخلق الحضاري، على مستوى التكوين القومي المنفتح.

بعد ذلك فان الحركة الجدلية تأخذ ضمن الحضارة ايقاعا مشبعا بالصدى الذاتي الذي يؤلف نوعية العلاقة بين الامة والعالم عن طريق منجزات الحضارة نفسها .

ولكن الايقاع وحده بدون الجدل قد يظل مفهوما شعريا أكثر منه وسيلة للفهم . وهكذا فان الجدل نفسه يتبلر بحركة ايقاعية ، تؤكد فواصل مهمة في جماعيات الانجاز الحضاري . انه قد يحدد مرحلة بالتفتح وأخرى بالنضج وأخرى بالزوال ، وأخرى بالبعث . بل انالجدل في مظهره الايقاعي ، سوف يوضح علاقة الموتوالبعث في صميم التكون الانساني وهو يلبس لبوسا حضاريا معينا ، وينساق في تاريخ محدد.

(1) الكتاب اللزمع نشره يبحث في تطور الجدل عند هؤلاء المفكرين بصورة مفصلة ملقيا ضوءا على أهمية هذا النهج لفهم التاريخ والانسان، ومدى ما يمكن ان يستفيد منه المفكر العربيلمواجهة واقعه الثوريوفهمه.

وهذه العلاقة ، الموت والبعث ، تضفي طابعا وجودياعلى الجدل ، وتقربه أكثر من الصفة الانسانية ، بعد أن تفصله عن الاطلاقية والمادية .

والان ، بعد هذا الاستطراد النظري الذي كان لا بد منه ، يمكننا ان نفهم موقف اعادة النظر بالنسبة للبعث ذاته . فالبعث في السياق الجدلي ، لا يعني سوى محاولة البحث ثانية عن الجذور . واعادة النظر هي الصورة النقدية الشمولية التي تنطلق منها عملية البحث عن الجذور . والاطار الجدلي الذي يشمل هذه العملية يطلق عليه اسم الثورة . اننا من داخل الثورة نعيد النظر في الثورة .ولكن بدلا من ان ننقد الثورة اطلاقا أو باعتبارها مبدأ ، فاننا نوجه تقييمنا الى ـ هذه ـ الثورة بالذات ، أي جماعية التغيرات التي قد تم حدوثها في مستويات تاريخية معينة سياسية واجتماعية وثقافية . ولا شك ان اعادة النظر هي التي تطرح ثانية المسالة الثورية من خلال ما تحقق منها ، ولا تفعل ذلك الا لان علائق جديدة قد انبثقت عن جماعية الثورة السابقةأو المرحلة من الثورة التي تمت . وهذه العلائق سوف تلقي ظلا قيميا اخر على الجماعية السابقة . ولذلك فان عملية تهديم الجذور سوف تتم باسم تأصيل جذور أخرى ، تغوص في بنية الواقع بقدر ما ترتفع مؤسسات ثورية جديدة .

* *

وعلى ضوء ما تقدم يمكننا الان ان نصف المرحلة الحاضرة من جماعية الثورة العربية المعاصرة لنا ، بأنها مرحلة توقف ، لانها تحتاج الى اعادة النظر ، على ان نعتبرهذه الاعادة للنظر جزءا اساسيا من وعي الثورية لذاتها. بل ان من اكبر احداثها حقا ان تستطيع عكس صفحات من التوعية لامن التبرير . وفرق أساسي بين التوعية والتبرير.

فالتوعية هي استخلاص المعاني خلال المنظومات الجدلية ، لجعل هذه المنظومات تحوز على ادراك لذاتها ، يتيح لها النظرة الشمولية التي تتضمن تقييما معادلا للوقائع كما هي . واما التبرير فهو يفترض قيام الواقعة أولا ثم حصرها ضمن اطار من المعقولية والتقييم الايجابي، دون أن تكون هي في ذاتها حاصلة على مثل هذه المعقولية وهذا التقييم. وكثيرا ما ينصب التبرير على ما هو خطأ لابرازه بثوب الصواب ، أو يتناول الانحراف ليجعله مقبولا ، وقادرا على ان يأخذ مظهر الاستقامة. أو قد يتعلق بمظاهر كاذبة مزيفة ، ليجعل منها هي المظاهر الاصيلة. وهذا كله مما قد يرافق الجدلية الفكرية ، وهي في سعيها الى موازاة الجدلية الواقعية وانارتها من داخل . وعندئذ لا بد ان تجهض الثورية كثيرا من طاقاتها الاصلية، وتستبدل تدريجيا منطق المجاوزة بمنطق المساومة ، أي منطق القبول للواقع تحت ستار الانقضاض عليه.

فالتبرير اذن يكاد يكون كله فعلاذهنيا مزيفا اذ انه غير قادر في الاصل على اكتشاف الخطأ او الصواب في التحقق الثوري . بينما نرى ان التوعية تفترض اصلا امكان الانحراف والخطأ بنفسنسبة الصحة، ان لم تكن أعلى . فتسعى التوعية الى كشف كل من الجانبين ، الاصيل والمزيف ، بنفس الدرجة منالوضوح والمواجهة المباشرة .

ولكن ينبغي أن نشير الىان هذه التوعية ليست في الاساس عملية تعقلية محايدة . انها وهي تنبثقعن حيوية الحركة الجدليةللثورة، لا يمكنها الا ان تلتزم خطها الاصيل . ومن هنا تنقلب هذه التوعية الى نوع من المقايسة بين القيم التي تطرحها الثورة ، وبين المنجزات التي تحققت باسم هذه القيم . وعندئذ يمكن تسمية هذه المقايسة بالمنطق الثوري ، او المنطق الذي يخص هذه الثورة دون سواها .

وتلك هي مشكلة جديدة تعترضنا ، فهل هناك منطق ثوري واحد، أم هناك أنواع من المنطق الثوري ، بحيث تجد كل ثورة منطقها الذاتي، تقيس به فعاليتها ، دون ان تعبأ بامكانية انطباقه على ثورات أخرى ؟

فالتبرير اذن يكاد يكون كله فعلا ذهنيا مزيفا اذ انه غير قادر في الاصل على اكتشاف الخطأ او الصواب في التحقق الثوري . بينما نرى ان التوعية تفترض اصلا امكان الانحراف والخطأ بنفس نسبة الصحة ، ان لم تكن أعلى . فتسعى التوعية الى كشف كل من الجانبين الاصيل والزيف ، بنفس الدرجة من الوضوح والمواجهة المباشرة .

ولكن ينبغي ان نشير الى ان هذه التوعية ليست في الاساس عملية تعقيلية محايدة . انها وهي تنبثق عن حيوية الحركة الجدلية للثورة ، لا يمكنها الا ان تلتزم خطها الاصيل . ومن هنا تنقلب هذه التوعية الى نوع من المقايسة بين القيم التي تطرحها الثورة ، وبين المنجزات التي تحققت باسم هذه القيم . وعندئذ يمكن تسمية هذه المقايسة بالمنطق الثوري ، أو المنطق الذي يخص هذه الثورة دون سواها .

وتلك هي مشكلة جديدة تعترضنا ، فهل هناك منطق ثوري واحد ، أم هناك أنواع من المنطق الثوري ، بحيث تجد كل ثورة منطقها الذاتي ، تقيس به فعاليتها ، دون ان تعبأ بامكانية انطباقه على ثورات اخرى ؟

ولكي نحل هذه المشكلة نرجع الى فكرة أن في التاريخ جماعيات جدلية لها استقلالها النسبي ، ولكنها تدخل هي ذاتها كأطراف جديدة في جماعية كلية للتاريخ ككل . وهذا ما يسمح لنا ان نكتشف في كل جماعية عن اتجاهها الذاتي الخاص ، أي عن نوعية الحركة الجدلية التي تقوم بين صيغها الحركية الذاتية ، كما يسمح لنا ان نتصور وجود اتجاه شامل بالنسبة لسياق التاريخ كله . وبما ان جملة هذه الاتجاهات ، هي دائما في اطوار حركية لا يمكن ان تهدأ ، أي في صيغ من التحليلات والتركيبات الاعقد والاشمل والاخصب ، فان التناقض بينها هو من صميم تكونها الوجودي ، بحيث لا يمكن اعتبار هذا التناقض بمثابة الخطأ او الانحراف الاخير الثابت .

ولذلك كانت لحظة اعادة النظر خلال السياق الثوري ، لحظة ضرورية من حيث انها محاولة متجددة من أجل تلمس الاتجاه ، أي ابراز المنطق الذاتي لحركية الثورة .

وقد نكون ، نحن العرب ، من أقل شعوب الحضارات قدرة على تفهم هذا الموقف . حتى تكاد أزماتنا التاريخية ، تمضي دون وعي منا . وكثيرا ما أخذت طابع الحدث الفظ ، المجهول المصدر والاسلوب . ولذلك اعترفت حضارتنا المنصرفة ، وما زلنا حتى في تصفيتنا الحاضرة تعترف بطقوس القدرية ، التي تنفي عن الاحداث أية معقولية داخلية ، وتتركها لعامل خارجي ، اتخذ صفة الغول الذي يفترس كل شيء ، باسم لا شيء ، ومن أجل لا شيء . فلقد صور الزمان بأنه ذو سياق تخريبي . وسمي بالدهر ، كما سمي الحدث الفظ من أية منطقية ، بالحدثان . وكل ذلك يعبر عن خضوع التاريخية العربية لمأساة خارجية ، تمثل فيها الاقدار ، بصورة القوى العجماء الغاشمة ، غير المفهومة .

فلم يحمل الزمان قط أي اتجاه تقدمي أو بنائي . وذلك لارتباط أسس الوجود الحضاري بثوابت غيبية . فلم يكن للانسان تاريخ ، وانما كان له دور مغلق على مسرح سكوني . وبدلا من الحركة الافقية التي توحي بالتغير بين آنات الماضي والحاضر والمستقبل ، كان هناك التقابل الشاقولي بين الحضيض ، عالم الارض ، والملأ الاعلى ، عالم السماء . وبين هذين القطبين لم يكن ثمة تفاعل او حوار ، بل انقطاع أصم . والانسان خاضع لحتمية هذين القطبين ، كما هو خاضع لحتمية المولد ، وحتمية الموت . وبين الطرفين لم يكن ثمة مجال لاية تاريخية فردية ، وبالاحرى ، لاية تاريخية حضارية أو وجودية شاملة .

غير ان الثورية المعاصرة هي بالدرجة الاولى ، تترجم عن احساس معاكس بالزمان . انها ثورية تاريخية ، تجد مكانها من حياة الانسان والامة والعصر .

ولهذا فان العوامل التي تؤثر في مجراها لم تعد غريبة عنها ، لم تعد تأتيها من جهة ما من الكون المظلم ، لم تعد بمثابة الضربات اللامعقولة التي تحمل كل عنصر من عناصر المادة الفظ من اية شخصية أو تاريخية .

والزمان لم يعد كارثي المنحى والاتجاه ، لانه لم يعد مجرد حلقة دائرية تلتف حول ذاتها بين قاعدة الارض وذروة السماء ، كالمولوي المجذوب . لقد تجسد الزمان أخيرا لحمة الاحداث ذاتها ، ليحول التوقيت من هدي الميلاد والموت ، الى تاريخية حقيقية ، تتعين بفعاليات الانسان ذاته . ومن صورة الزمان كعمر يحمل الكارثة لكل كائن حي ، تولدت التاريخية التي تتحرك ضمن جدلية . فلا بد أخيرا من ان يحل منطق العلاقات ، بدلا من منطق الاقدار الخارجية . وتنتقل بذلك الحركة من خبط عشواء شبه سحرية ، الى حجر العلاقات ذاتها ، وتصبح بذلك اتجاها باطنيا ، يمكن للوعي الانساني ان يكشف عنه وان يدركه .

ان حركة الجدل ذاتها في السياق التاريخي ، لا تتم بصورة تطورية مستمرة . بل ان تفاعل النقائض الداخلية في جماعية جدلية ، لا بد ان يحول هذه الجماعية ، في لحظة نمو مرتقبة ، من هيئة معينة ، الى هيئة أخرى ، لا تختلف عنها مجرد اختلاف ، بل قد تناقضها في بنيتها الوجودية ، كما تناقض وحدة الجماعية طبيعة الحدود الداخلة في تكوينها . وهكذا فان الطفرة هي الصورة الاساسية لحركية الجماعيات الجدلية . ولكنها طفرة تتم من داخل ، وبذلك تحمل معقوليتها معها دائما . وهي معقولية ليست سكونية أبدا ، وذلك لانها معقولية موقتة لا بد ان يدب الاضطراب في وحدتها ، فتنبعث الى اطراف جديدة ، اثر اصطدامها بجماعية أخرى . اي ان هذه المعقولية ليست موقتة الا لانها لا تلبث حتى تفرز لا معقولية جديدة ، تتحول هي ذاتها الى جماعية جديدة ، أي لا تلبث حتى تشف عن معقولية موقتة أخرى .

فالتقدم بالمعنى التطوري الذي ساد تفكير القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، لا أساس له من الحقيقة ، الا اذا اعتبرنا التغيرات البطيئة التي تنمو من خلالها حدود الجماعية قبل ان يبلغ التناقض بينها ذروته ، اعتبرناها تقدما أو تطورا . غير ان هذا التطور في الحقيقة لن يغير من البنية الكيفية للعنصر أو الحد ، فينقلها الى بنية مختلفة . فمثلا ان ازدياد حرارة الماء بالتدريج لن يصيب تركيب الماء ذاته بأي تغيير . أما عندما تبلغ هذه الحرارة درجة الغليان ، فان الماء يتحول بطبيعته الى مادة جديدة تماما هي البخار .

والواقع ان تاريخ جماعية جدلية ما ، هو تاريخ التحولات هذه التي اصابت الجماعيات الاصغر داخل الجماعية الكلية التي هي موضوع البحث . فليست تلك التغيرات البطيئة بالمقياس الصحيح ، ان لم تبلغ حالة التحول الجذرية . هذه الحالة من التحول اذا ما بحثنا عنها ضمن الفعاليات الكلية للجماعات الانسانية عبر التاريخ ، وقعنا في الحقيقة على فلسفة الثورة .

فالتاريخ اذن لا يزحف ولا ينمو ، ولكنه يقفز . وقفزاته هي التي تعطي مجراه المتجانس صفة اللاتجانس . فتبرز العصور . وما العصور الا مجموعة ملامح خاصة لمنظومات جدلية ، تختلف بالنوع والطبيعة عن نظيراتها في عصور أخرى . والقفزة في حقيقتها هي الثورة ، اذا ما فهمنا الثورة على انها ذلك التحول العميق من جماعية جدلية الى جماعية جدلية تالية .

وليس من الضروري ان تكون الثورات كلها ذات اتجاه تقدمي . بل قد توجد ثورة لتعاكس ثورة اخرى . وبقدر ما تكون الثورة المعاكسة قوية الجذور ، بقدر ما تدفع الى مركب جديد من الثورتين . فيجيء هذا المركب ليحقق اهداف الثورة الاولى التقدمية ـ نسبيا ـ ولكن بأصالة وواقعية أكثر .

ومن هذه الزاوية ينبغي ان تفهم النكسة . فالنكسة هي الثورة المعاكسة . ولا تظهر هذه الثورة المعاكسة ، الا عندما ينخفض توتر الثورة الاولى ، وتميل الى نوع من الاستنقاع ، أي عندما تفقد استمرارها الذاتي . ولا تفقد هذا الاستمرار ، الا عندما تكف عن كشف عوائق أعمق ، مدفونة في أعماق الواقع الذي أخذت في الثورة عليه .

والحقيقة ان طبيعة كل نكسة ، أي هذه الثورة المعاكسة للثورة الاصلية ، ان تستفيد من جميع العوائق السابقة ، التي اكتفت الثورة الاصلية بتخديرها دون القضاء عليها . فتنبعث الحياة ثانية في هذه العوائق ، وتنقض بكل تلك القوى المزيفة التي اتاحتها لها الثورة المعاكسة ، في سبيل أن تعاود أدوارها المنصرمة .

ان اصطدام الثورة الاصلية الاول لم يكن اصطداما على مستوى جماعيات العلائق السلبية ، كل على حدة ، لهذه العوائق . بل جابهتها

ـ البقية على الصفحة ٧٧ ـ

لماذا نعيد النظر

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٧ ـ

ككل جدلي متجانس . واما الثورة المعاكسة ، فانها سوف تنعش هذه الجماعيات بصورة منفصلة . وتحاول كل جماعية منفردة ، ان تصعد الى مستوى العقبة المطلقة . بمعنى انها سوف تحاول ان تفجر في ذاتها بقية قواها كلها ، وترمي بها دفعة واحدة الى الساحة . وعندئذ فان بقاء الثورة المعاكسة يصبح مرهونا بمنع عودة الثورة الاصلية . ولكن الثورة الاصلية لن تعود هي نفسها ، اي بطبيعتها الاولى ، وامكانياتها ووسائلها التي حققت بها مباشرتها السابقة . فلا بد من تكون ثوري ذي تناظر عضوي تقريبا مع التركيبات العضوية للجماعيات التي تألفت منها مظاهر النكسة .

* *

نحن الان لن نتعرض الى تفاصيل هذه المفاهيم المكثفة . ولكننا نبدأ باحلال مشكلة (اعادة) النظر في مكانها من التوعية الثورية . ونسارع الى القول بأن هذه التسمية (اعادة النظر) لا تفي بالمطلوب منها تماما . بل انها ستقصد كمصطلح ايدلوجي عن تأدية المعاني المترتبة عليها ، عندما نضعها في مكانها الحقيقي من البحث . غير أننا نكتفي الان، في هذه المرحلة الموطئة للبحث ، بمناقشة المعاني العامة التي تنطوي عليها اعادة النظر ، بحيث تكون هذه المناقشة ممهدة في جملتها لتحليل المشكلات الايديولوجية الكبرى ، التي ستتعرض لها .

تبين لنا من التعميمات السابقة ، ان اعادة النظر هي المحصلة الفكرية لبرهة التوقف في حركية الثورة . والا فان برهة التوقف هذه لن تؤدي الى حركية نشيطة اخرى .. وستكون برهة دائمة ، ان اعادة النظر ، تؤلف المنهج المحايد الذي سيكشف عن تراكمات الانحراف الثوري في الجماعية السابقة التي تحققت كبنيات واقعية ، سياسية واقتصادية واجتماعية . فكان موقف اعادة النظر اذن ينطوي على تقييم ما . هذا التقييم يصطلح عليه في اللغات الايديولوجية بالنقد الذاتي . والحقيقة ان النقد الذاتي هو أقل ايحاء بالمشكلة من موقف اعادة النظر. اذ ان النقد الذاتي تعبير مبسط يعني وصع سلوكية ما موضع المقايسة بين الخطأ والصواب . بينما نجد ان اعادة النظر ذات موضوع اوسع قد يتضمن جذور كل سلوكية ، لا سلوكية معينة . من هنا كان موقف اعادة النظر لحظة حاسمة في جماعية الثورة الكلية . لانها قد تتجاوز الاحداث ومقياسها الخاص ، الى التساؤل عن معنى الحدث عامة ، عن القيمة ، عن الاصل . وهذا هو جدوى اعادة النظر ، باعتبارها ليست صورة آنية عن مشكلة فكرية ما ، بل هي تكاد تصل الى طرح بديهيات العلاقات كلها من جديد . فالنقد الذاتي يفترض حالة من التطابق بين جماعيات محققة وبين مقياس سلوكي معين وواضح . بينما تستهدف اعادة النظر قيمة المقياس بالذات . وهي في حقيقتها لا تستهدف الا المقياس. لان الاحداث الثورية التي وقعت وأصبحت جزءا من بنية الواقع نفسه ، يفترض وقوعها ذاته عن منحى معين حدثت بموجبه ، يؤلف الى حد ما صورة عن سلسلة القيم التي أوحت بتحقيق هذه الاحداث في منحى دون آخر . ثم ان النقد الذاتي ، يبقى عملية جزئية سطحية ، لانه قائم هو نفسه على نوع من الوثوقية العقائدية ، تناقض تماما حركية الفعل الثوري ، لان النقد الذاتي يطلب من أصحابه ان يسلموا اولا بقواعد الايدلوجية الاساسية التي يوجه اليها هذا الانتقاد . اي ان الانتقاد سوف يتقيد مباشرة بنوع من الوثوقية التي تفرض صحتها كمجموعة من البديهيات . بينما سعى موقف اعادة النظر الى مواجهة هذه القواعد ذاتها ، اي مواجهة الايدلوجية كهيكل مبدئي ، وقد فقد قدسية الايمان الساذج به ، وراح يتطلب تعقيلا بدلا من التعلق الطوبائي .

واما الوسط الحي المساعد على نمو اعادة النظر ، فانه وسط النكسة أكثر منه وسط النجاح . وذلك لان استمرار النجاح امر وهمي، ان لم يكن وسيلة لخداع الذات . ومن هنا جاءت أهمية الاعتراف بالنكسة اولا . هذا الاعتراف الذي ينطوي على اقرار حاسم بضرورة التوقف من جهة ، وبضرورة العودة الى ظروف العقبات نفسها ، والكشف عن بنيات جديدة قد تشكلت وراء الصورة الأولى لهذه العقبات في مخطط المعركة الثورية ، من جهة اخرى .

ان موقف اعادة النظر هو اشارة الاعتراف بالنكسة وضرورة المراجعة الشاملة . وهو الصورة العقائدية الاصيلة التي تسمح لنفسها بمناقشة اية وثوقية للعقيدة القائمة . ومن العبث ان يصر الثوري على التمسك بوثوقية العقيدة باسم فضيلة سكونية عقيمة ، هي فضيلة التطابق الجامد بين جملة مثل عليا ، أثبت واقع الثورية مدى ما فيها من وهم ، وبين مخطط للعمل ، أثبت واقع الثورية ايضا عدم كفاءته وتناسبه مع نوعية العقبات التي تخص الواقع العربي دون غيره .

ليس من شك في ان موقف اعادة النظر يستفيد من لحظة التوقف في تقدم الثورية . انها اللحظة المناسبة وحدها كيما يصبح الماضي جزءا حقيقيا في بناء المستقبل ، وليس عقبة في طريق نشوئه . ولذلك تجيء النكسة صورة اخرى عن الثورية ، وان كانت صورة سلبية بالنسبة لذاتها . فما دمنا نفهم الفشل من خلال النكسة ، فان ايماننا سوف يبقى قائما بالثورية ذاتها . لان الفشل ليس هو النهاية في العلاقات الجدلية، بل هو المرحلة الضرورية لايضاح القيم الموضوعية لمراحل النجاح السابقة، والكشف عن عوامل الفشل في صلب تكوينها ذاته .

كل هذا يجعلنا نثق في ان وجود النكسة هو من صلب وجود الثورية نفسها ، وليس نقيضا له . بل ان مناقضته له عامل بناء لانه سوف يجعل الثورية تنتبه لمستويات أعمق في المناضلة والمواجهة الحاسمة .

والنكسة لا تتوجه الى صميم الدفق الثوري ، بل الى الاسلوب العملي لتحقيق هذا الدفق في مواقف معينة . ولكن خطر النكسة يتعاظم عندما تجهض النكسة نتيجتها المرتقبة وهي اعادة النظر . وتقع عملية الاجهاض حين تتشبث الثورة بوثوقيتها القديمة ، اي بتعلقها شبه الغيبي بمنطقها القديم ووسائلها التي اعتادت عليها وألفتها لدرجة ان تعذر عليها تقدير مدى نجوعها أو عقمها .

والمشكلة فعلا بالنسبة للوضع الراهن للثورية العربية انها تترك نفسها لعفوية الحركة التاريخية ، وتتعمد اهمال الرؤية الداخلية التي تتطلب ارادة الوعي الشامل لقدرات الثورية ولتناقضها في مخطط الواقع الفاسد . فان العجز عن مد الثورية بالتوعية النظرية ، لا يقل عن العجز الذي تجابهه هذه الثورية تجاه النظريات الايديولوجية الجاهزة قبلها .

وهكذا فلا تعيد الحركة الجدلية الثورة ، ولا ينتشلها من عثرتها في النكسة الا الوعي الحقيقي الموضوعي بكلية البنية النظرية للثورة . ولكي يكون هذا الوعي ملتزما حقا ونابعا عن حاجات الثورة نفسها فانه يحدد فعاليته باطار اعادة النظر ، اي في هذا الموقف النقدي الاصيل لقيمة الاسس التي انبثق عنها العمل الثوري .

ان اعادة النظر مطالبة اولا بتحليل القوى الدفاعية التي يتحصن بها الفشل ، والتي تحاول ان تثبت النكسة وتجعلها مستقلة عن جدلية الثورة . وان من أبرز هذه القوى الدفاعية ، قوة الوثوق ذاتها في عقلية الثورة ضمن مراحلها السابقة . وأعني بقوة الوثوق ذلك الايمان شبه الغيبي والساذج لجملة الشعارات والاهداف التي اطلقت الحركات الاولية للثورة .

وعندما يتحقق موقف اعادة النظر فانه سيحول النكسة من فشل

إصم نهائي الى عملية تصفية جذرية . فالعناصر السلبية التي لم تقدر المراحل السابقة من الثورية ان تواجهها الا بصورة متجانسة لا تمييز فيها ، سوف تبرز الان ضمن أقصى تطرف في عداوتها للثورة . وهذا البروز الذروي هو الذي سيساعد على كشف هذه العناصر ، في الوقت الذي تعتقد انها قد اكتسحت ساحة المعركة وسادت خطوطها كلها .

وهكذا فان الثورية بدلا من ان تتابع نضالا نظريا ضد شعارات سلبية عامة ، فانها سوف تصطدم بالرصيد الواقعي لكل شعار منها . وعندئذ لا بد ان يؤذن هذا الاصطدام بتفتح امكانيات نضالية تتصف بالحذر والتدقيق العلمي والتخصص في توجيه عمليات التصفية . ولعل الثورية التي تتصف بالنزعة القومية ، هي اكثر الثوريات تعرضا للنكسات ما دامت تخوض معارك مثالية تتجاوز مشكلات التنظيم الثوري ، وتتجاوز في الوقت نفسه ، حسها الواقعي في تقدير القوى المناوئة .

ولذلك كان من نتائج النكسة حقا ، ان تنتقل الثورية القومية الى دور تفصيلي ، الى دور يميز الملامح الحقيقية لنوعيات المشكلات المطروحة على بساط النضال اليومي .

ولن تكون هذه المشكلات الا جماعيات تاريخية لا تعالج بمنطق مباشر يكتفي بالحل السياسي . فالحل السياسي هو النتيجة الاخيرة الحاسمة لذروة في الصراع الجدلي . اذ لا بد اولا من كشف الحدود المتناقضة في جماعيات العقبات ذاتها ، لان التهديم الخارجي لن يزيدها الا تماسكا داخليا . ولا بأس من لحظة التوقف ، التي تعيد شيئا من حرية النمو المطمئن الى هذه الجماعيات ، التي لا تلبث حتى تتصادم اطرافها . ويتحول موتها البطيء الكامن فيها ، الى موت فعال .

ان التناقضات الذاتية في الجماعيات السلبية هو الذي يقرب الهنيهة التاريخية الفاصلة ، التي فيها تنقلب النكسة الى أصلها الثوري، بقوة العوامل المثبتة للنكسة ذاتها .

مجموعات ((الاداب))

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنوات التسع الاولى من الاداب تباع كما يلي :

			ل.ل
السنة الاولى	١٩٥٣	(مجلدة)	١٥٠
السنة الثانية	١٩٥٤	(بدون تجليد)	٤٠
السنة الثالثة	١٩٥٥	» »	»
السنة الرابعة	١٩٥٦	» »	»
السنة الخامسة	١٩٥٧	» »	»
السنة السادسة	١٩٥٨	» »	»
السنة السابعة	١٩٥٩	» »	»
السنة الثامنة	١٩٦٠	» »	»
السنة التاسعة	١٩٦١	» »	»

ومن نتائج اعادة النظر ، في الوسط السلبي للنكسة ، ان الثورية القومية ستلتقي مع عناصر الثوريات الواقعية الكامنة في البنى الاعمق لكيان المجتمع العربي . وهذا ما سيكشف صفوفا جديدة من العقبات لم تكن الثورية القومية قادرة من قبل على اعطائها حقها من الخطر والاهمية .

ان الثورية القومية من حيث انها تتجه الى بناء المستقبل فانها بطبيعتها تهمل تقدير الجماعيات التاريخية التي أدت الى انشاء الوجه الحالي لكيان الواقع . ومن هذه الجماعيات التاريخية تبرز البنية النفسية وهي في جدليتها اليومية ، والبنى الطبقية والانقسامات المزمنة في قطاعات العقائد والمقاييس الاخلاقية .

ولذلك فان لحظة التوقف تتيح لموقف اعادة النظر ان يعطي حضورا ماديا لماضي هذه الجماعيات التاريخية . وبذلك يتم التجميع التاريخي في وحدة الجدلية الثورية والتجميع الشاقولي لمختلف العناصر السلبية الداخلة في تركيب بنية الواقع الفاسد .

فالنكسة تعطي حياة موقتة لعقد الواقع الفاسد . وبدلا من أن يظل هذا الواقع الفاسد يمارس ايحاء مجردا ضد الوجدان الثوري ، فان النكسة تكشف مصادر الفساد ، وتمركز المقاومة حولها .

وكذلك فان اعادة النظر تدفع بمصادر هذا الفساد الى قلب الحركة الجدلية بعد ان اهملتها هذه الحركة في مراحلها السابقة وجعلتها تتابع سلبيتها الصامتة وهي على هامش الثورية . ولكن النكسة التي تنشب بها العناصر السلبية كوسيلة لاستمرارها هي التي ستؤدي بها الى دوامة التصفية ، حيث ستلعب دورها الاخير ، ولن يكون هذا الدور الا القضاء على نفسها .

ومن نتائج اصطدام الثورية بلحظة النكسة أيضا تلك الانقسامات الضرورية والطبيعية التي ستنتجزا اليها القوى الثورية موقتا . فالانقسام هو التعبير العامي عن عملية التصفية التي تقوم بها الثورية في حركتها الجدلية ضد نفسها وضد عقباتها في الآن الواحد .

واصحاب الوجدان السكوني من الثوريين ، هؤلاء الذين حذرتهم الوثوقية الاولى ، يخشون من الانقسام ، ويعتبرونه صورة عملية من صور الهزيمة .

ولكن هذا الانقسام ليس سوى بداية انتصار الثورية وهي تباشر مجددا عملية التصفية الشاملة . أي أن الانقسام هو المردود الواقعي للنكسة بالنسبة للثورية . فلولا هذا الانقسام لما أثمر موقف اعادة النظر ولظلت الثورية مخدوعة برصيدها من القوى الثائرة بين صفوفها .

* *

ليست النكسة اذن هزيمة نهائية الا عندما تجهض اعادة النظر كنتيجة لانتصار العقيدة على نفسها . واذا كان للمنهزمين من مسؤولية امام ذواتهم ، فانها مسؤولية المواجهة الشاملة لاسس المعركة النضالية ككل .

اننا نسمي ذلك في لغتنا اليومية بالدروس التي تخرج بها الثورية اثر كل معركة من معاركها . ولكن لا قيمة لهذه الدروس حقا ان لم تكن الفائدة العملية المترتبة عليها تساوي الفائدة النظرية او تتفوق عليها .

وليست هذه الفائدة الا ان نجعل وعينا لثوريتنا جدليا حقا كما هو واقع هذه الثورية في انتصاراتها وفي نكساتها . بذلك وحده يمكن ان تلعب ارادتنا الانسانية في هذه الثورية دورها الاساسي المسؤول الى جانب الارادة التاريخية والظروف الموضوعية التي تجعل من ثوريتنا حتمية حقيقية ، كأعلى وأنبل حتمية في حياتنا .

دمشق

مطاع صفدي